عصر المخطوطات

لانكاد نصل الى العصر الأموى وتتكسر الحواجز مابين مصر والجزيرة العربية ، وتصبح الفسطاط واحدة من أهم عواصم الإمبراطورية الإسلامية بعد عاصمة الخلافة ، حتى يتدفق ورق البردى على مراكز الثقافة فى البصرة والكوفة ثم بغداد من بعد ، ويصبح فى وسع المؤلفين والناسخين الحصول عليه فى شىء من اليسر ، بعد أن كانت الكتابة وقفاً على الرق ، وألوان أخرى من العظام ، والعسب والأحجار غير عملية ، فاتسعت حركة التدوين فى الحديث والتفسير ، والتاريخ ، أو المغازى والسير بلغة العصر الوسيط ، واللغة والشعر . لكن أياً من هذه العلوم لم يكن فى البدء خالصاً فى مادته . وكانت مصر المصدر الأول للبردىّ . تصنع منه القراطيس أو الطوامير ، ويكون طول الواحد ثلاثين ذراعاً وأكثر . فى عرض شبر ، وظلّت مصر لمدة طويلة من الزمن تورد الورق البردى ، ثم الورق الأبيض بعد اختراعه ، إلى العالم الإغريقى . وكان يسمى القراطيس أخذاً من الكلمة اليونانية Chartes أو من اللاتينية فى صيغة الجمع Chartas :

لكن ورق البردى مهما كانت سبل تيسيره لا يتأتى لكل الناس الحصول عليه ، ولقد جاء الحل سريعاً مع زحف القائد العظيم قتيبة بن مسلم إلى الشرق . فعندما فتح العرب سمرقند عام ٧١٢ م وجدوا بها مصنعاً للورق ، إنتاجه أجمل وأرخص مما كانوا يكتبون عليه فى بلادهم ، فأبقوا عليه ، وأقاموا معه مصنعاً آخر بمساعدة أهل سمرقند عام ٧٥١ م ، وأرسلت الدولة عدداً من الأسرى الصينيين لرفع كفايته الإنتاجية ، وكان الصينيون فى القديم أول من ابتدع الورق ومهر فى صناعته ، وربما كانت الكلمة « كاغد » التى أطلقها المسلمون على الورق الذى تنتجه هذه المصانع من أصل صينى ، دخلت اللغة العربية مباشرة ، أو عن طريق اللغة الفارسية .

وعلى غرار مصنع سمرقند أنشئ أول مصنع للورق فى بغداد عام ٧٩٤ م ، وحل الورق محل الرق فى مكاتب الدولة ، وأخذت مصانع الورق تنتشر فى بقية

أنحاء الإمبراطورية الإسلامية ، فكان لمصر مصنعها الخاص بها ، أقيم قريباً من عام ٩٠٠ م ، ولمراكش مصنعها حوالى ١١٠٠ م ، وللأندلس مصنعها ، وأسس فى شاطبة Jativa قريباً من هذا التاريخ ، وكان أول مصنع للورق يؤسس فى أرض أوربية ، وما تزال شاطبة من المراكز الهامة لصناعته فى شبه جزيرة إيبريا حتى وقتنا الحاضر . وكانت هذه المصانع تنتج كافة أصناف الورق المتنوعة من أبيض وملون . يمكن القول ، مع كثير من الترجيح ، أن صناعة ورق البردى للكتابة قد توقفت فى مصر حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى ، الرابع الهجرى ، وآخر وثيقة مكتوبة على ورقة بردية يعود تاريخها إلى عام ٣٢٣ هـ = ٩٣٥ م ، وأقدم مخطوط عربى كُتب على الورق ووصل إلينا فى الحديث ، اسمه « غريب الحديث » لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام ٨٣٧ م ، ويحمل تاريخ ذى القعدة ٢٥٢ هـ = ديسمبر ٨٦٦ م . ومخطوطة هذا الكتاب محفوظة فى جامعة ليدن بهولاندا ومنه نسخة أخرى أحدث تاريخاً ، ترجع إلى عام ٣١١ هـ = ٩٢٣ م ، محفوظة فى مكتبة الجامع الأزهر .

ومع بداية عصر النهضة الأوربية ، اقتبست دول الغرب صناعة الورق من العرب ، عن طريق الأندلس انتقل إلى فرنسا ، وعن طريق صقلية الإسلامية انتقل إلى إيطاليا ، وعنهما انتشر فى بقية أنحاء أوربا ، ومن الأخطاء التاريخية الشائعة لقول بأن معرفة أوربا للورق تعود إلى الحروب الصليبية .

مع قيام الدولة العباسية بلغت الإمبراطورية الإسلامية قدراً عالياً من الرقى العقلى والثراء المادى ، وبدأ ذلك كله يؤتى ثماره ، دقة فى العلم ، وإقبالاً عليه ، وحبا للثقافة وتقديراً لها ، وولوعاً بالكتب واقتنائها . وخلال خمسمائة عام ، أو على التحديد مابين ٧٠٠ م و ١٢٠٠ م ، سيطر الإسلام على العالم ، سيادة وعلماً وتوهج حضارة . لقد ورث تراث الإغريق العلمى والفلسفى فحفظه وتمثله وأثراه ، وأضاف اليه الكثير من ذات نفسه ، ونقله إلى أوربا فوسع الأفق العلمى والثقافى لعصورها الوسيطة المظلمة ، وتسرب بعمق إلى التفكير والحياة الأوربية .

كان قيام صناعة الورق وانتشارها مظهرًا واضحًا ودقيقا لحياة المسلمين الثقافية ، لأن رواج الثقافة مرتبط بانتشار التعليم ، واختفاء الأمية ، فمنذ عهد مبكر من قيام الإسلام ، أصبحت المدرسة ، ممثلة فى المسجد أصلاً أو فى بناء ملحق

به ، مناط اهتمام الدولة والأفراد ، يذهب إليها الأطفال منذ العام السادس مجاناً أو مقابل رسم رمزى هو فى متناول الجميع ، وكانت مدة الدراسة خمس سنوات ، ومن شرائط المعلم أن يكون متزوجاً ، وعلى قدر وافر من الثقافة . وفى سن ناضجة .

وفى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، أحسَّ الناس أن التعليم الابتدائى لم يعد كافياً ، وأن بناء شخصية التلميذ وتكوينه العلمى يتطلب مزيداً من الإعداد ، فتأسس ما يمكن أن نسميه بالمدرسة الثانوية ، وبذلك أصبحت المدرسة الأولية للتربية ومجاناً ، وتدرس القراءة والكتابة والقرآن ومبادئ الحساب وشيئاً من الشعر ، وتجمع بين البنين والبنات . ويتجلى اهتمام الرأى العام بتلاميذ هذه المدارس ، فى التكريم الذى كان يقدم لتلاميذها ، فكان يُطاف بالنجباء منهم فى الشوارع على ظهور الإبل ، ويرميهم الناس باللوز ، وكانت هذه الطريقة متبعة فى بغداد ، على حين أخذت فى الأمصار الإسلامية الأخرى طرقاً مغايرة ، للتعبير عن اغتباط الناس بهؤلاء الصبيان النابهين . أما التلاميذ فى المدارس الثانوية فكانوا يدرسون النحو واللغة والأدب والمنطق والرياضيات ومواد أخرى ، وتزاوج المدارس بين التدريس النظرى والتطبيق العملى إذا سمحت طبيعة المادة بذلك .

وإلى جانب التعليم العام كانت الطبقات العالية فى المجتمع تحضر لأبنائها معلمين خصوصيين ، يفقهونهم فى الدين والأدب . وفى الكثير من أجزاء الإمبراطورية الإسلامية بلغ التعليم الابتدائى قدراً عالياً من الانتشار ، ويقرر المستشرق الهولندى رينهاوت دوزى Dozy بأن « كل واحد تقريباً فى الأندلس كان يعرف القراءة والكتابة » . بينما كانت أوربا المسيحية لا تعرف إلا أوليات المعارف ، وكان عرفانها لا يعدو طبقة قليلة معظمها من رجال الدين .

ثم أصبح التعليم الثانوى وكأنه غير كاف لتلبية حاجات الناس العقلية ، فأنشأ الخليفة المأمون عام ٨٣٠ م أول معهد للتعليم العالى فى الإسلام ، سماه **بيت الحكمة** ، ومع أنه أقيم أصلا للعناية بالترجمة والإشراف عليها تخطيطاً وتنفيذاً ، إلا أنه كان موضعاً للتدريس ومناقشة القضايا العالية ، ويضم مكتبة عامة ، ومرصداً متصلاً به . ومالبث « بيت الحكمة » أن عجز عن مواجهة السيل المتدفق من الراغبين فى الثقافة ، فضلاً عن تنوعها وتعقد قضاياها والتخصص فى دراستها ،

فأسس الوزير السلجوقى نظام الملك « المدرسة النظامية » فى بغداد عام ١٠٦٥ م . وسرعان ما أصبحت مثالاً احتذى فى مدن أخرى كثيرة ، وكانت الحكومة تتولى الإنفاق عليها . ويدرس فيها القرآن والحديث والفقه طبقاً للمذهب الشافعى ، وعلم اللغة والأدب والجغرافية والتاريخ والمعمار والفلك والرياضيات والكيمياء والموسيقى والجبر . وكان طلبة المدرسة يتمتعون بالمسكن والمأكل مجاناً ، والكثير منهم يتلقّى فضلاً عن ذلك مكافآت شهرية وظل لإمام الغزالى يشغل أحد كراسى الأستاذية فيها مدة أربع سنوات من ١٠٩١ إلى ١٠٩٥ م . وعاشت المدرسة النظامية بعد سقوط بغداد على يد هولاكو عام ١٢٥٨ م ، كما عاشت بعد غزوات التتر الأخيرة ، ثم اندمجت فى معهد عال آخر هو المستنصرية .

تنسب المستنصرية إلى الخليفة المستنصر ، وقد أسسها فى بغداد عام ١١٣٤ م وكانت ذات صبغة إسلامية دولية ، إن صح التعبير ، فهى تدرّس المذاهب الفقهية الأربعة ، واعترفت بها الدولة رسميا للفتوى طبقاً لتعاليم هذه المذاهب ، وكان على مدخلها ساعة ، من المؤكد أنها ساعة مائية ، ومزوّدة بمساكن للطلاب وحمامات ومطابخ ، وملحق بها مستشفى ومكتبة ، ولايزال بناؤها قائماً حتى يومنا هذا ، ويكاد يكون الأثر المعمارى الوحيد القائم من أيام العباسيين . وكان هذا المعهد ، فى تنوع ثقافته ، وتعدد أقسامه ، وصبغته الإسلامية الدولية ، الشيء الذى قلده الغرب عند إنشاء جامعة باريس فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فكانت تمثل أربع دول مسيحية ، ثم أصبحت المثل الذى احتذته كل الجامعات الأوربية فى العصر الوسيط ، وما تقوم به منظمة الأونسكو .U.N.E.S.C.O الآن على الصعيد الثقافى الدولى ، وبوسائل أكثر عصرية وشمولاً ، شبيه بما كانت تقوم به المدرسة المستنصرية بين المسلمين فى العصر الوسيط[1] .

وأنشأ الحاكم الفاطمى دار الحكمة فى القاهرة عام ١٠٠٥ م وألحق بها مكتبة

---

(١) Eisler, Jacques c : La Civlisation Arabe, p. 78, Paris 962 .

ولمزيد من المعلومات عن دور الجامعات الغربيه فى الجامعات العربية ، يمكن العودة إلى كتاب التربية الإسلامية فى الاندلس ، لخوليان ريبيرا ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

سُمّيت دار العلم وكانت مخصصة لدراسة فلسفة المذهب الشيعى والتعريف به ، إلى جانب العلوم الأخرى ، وظلت قائمة حتى مجيء الأيوبيين ، كما أن الخليفة العزيز حوّل الجامع الأزهر إلى جامعة علمية ، تضم من أنواع التعليم أقسامه الثلاثة : الابتدائى والثانوى والعالى .

كان الإملاء يعتبر أعلى مراحل التعليم ، وبخاصة فى القرن الثالث الهجرى ، وفى القرن الرابع ترك اللغويون طريقة المتكلمين والمحدثين فى الإملاء ، واقتصروا على تدريس كتاب يقرأ منه الطلبة ، وآخر من أملى من اللغويين ، فيما يقال ، هو أبو القاسم الزجاجى ، المتوفى سنة ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م ، وكان الأستاذ يعود أحياناً إلى ماأملاه فيراجعه ، وقد يزيد عليه ، وكان للطالب أن يسأل المدرس ، وكان عدد الطلاب يعرف بإحصاء محابرهم التى يضعونها أمامهم ، وهى أهم عتاد الطالب ، وفى محاضرات كبار الأساتذة كان يتراوح عدد الطلاب بين ثلثمائة وسبعمائة طالب ، وللطالب أن يسأل أستاذه ، وبعض الأساتذة كان يضيق بطلابه حين تنبئ أسئلتهم عن جهل أو سُخف . حُكى أن طالباً سأل أبا عبيدة اللغوى سؤالاً يدل على سوء الفهم ، ثم تلاه ثان وثالث فسألا على نفس المستوى ، فأخذ أبو عبيدة نعليه ، واشتد ساعيا فى مسجد البصرة ، يصيح بأعلى صوته : من أين حُشرتْ البهائم على اليوم !

لكن ذلك لم يمنع الطلاب أن يقولوا آراءهم فى أساتذتهم ، فى إطار من الصراحة والاحترام ، وقد أورد صلاح الدين الصفدى فى كتابه « نكْت الهمين فى نكت العميان » رأى ياقوت فى أستاذه المبارك بن المبارك ، المتوفى عام ١٢١٥ م ، وكان أستاذ النحو فى مدرسة النظامية ، فقال عنه إنه « قليل الحظ من التلامذة ، يتخرّجون عليه ولا ينسبون إليه ، ولم يكن فيه عيب ، إلا أنه كان فيه كيس ولين ، فإذا جلس للدرس قطع أكثر أوقاته بالأخبار والحكايات وإنشد الأشعار ، حتى يسأم الطالب منه ، وينصرف عنه وهو ضَجر ، وينقم ذلك عليه . رغم أنه كان يجيد عددا من اللغات الأجنبية من بينها التركية والفارسية والرومية والحبشية والزنجية ، وكان إذا قرأ عليه عجمىّ واستغلق عليه المعنى العربى فهَّمه إياه بالعجمية » .

ومنذ مطلع القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، شهد العلم الإسلامى

حركة ترجمة نشيطة ، وكان يشترط فى المترجم أن يكون على مستوى رفيع فى إجادة اللغتين ، وأن يكون ملما تماما بالموضوع الذى عالجه المؤلف ، وألا يكون أسلوبه فى الكتابة أحطّ مرتبة من أسلوب المؤلف ، وأن يكون قادراً على استخدام الألفاظ والتعابير القريبة إلى الأصل المترجم عنه ، مع المحافظة على سلامة التعبير ، وصحة القواعد ، وجودة الأسلوب فى اللغة المترجم إليها . وربما أعيدت ترجمة كتاب مرة أخرى ، على نحو أكثر دقة من ترجمته التى بين يدى الناس . وفى البدء كان المترجمون يستخدمون الترجمة الحرفية ، ينقل الجملة من لغة إلى لغة ثانية كلمة كلمة ، وكانت حصيلة هذه الطريقة عدداً من الكتب الرديئة الترجمة وغير المفهومة ، فلما انتهى الأمر إلى شيخ المترجمين **حنين بن إسحاق** قضى على هذه الفكرة ، وأعطى الحياة الثقافية طريقة أصح منهجا ، تنهض على أساس من نقل المعنى الصحيح نقلاً دقيقاً مضبوطاً .

ولا يجارى النهم الذى عُرِف به المسلمون فى الإقبال على العلم ، واحتواء تجارب الآخرين ، غير إقدامهم على اقتناء الكتب ، وكانت المساجد تؤدى إلى جانب مهمة المدرسة مهمة المكتبة العامة ، وتميزت مكتبات المساجد بغناها ، بفضل ما يُهدى إليها من كتب ، وكان **الخطيب البغدادى** المؤرخ المشهور (١٠٠٢ - ١٠٧١ م) من بين من وقفوا كتبهم على المسلمين . وكما استقلت المعاهد العالية عن المساجد دون أن تضعف الدراسة فى هذه ، حدث الشىء نفسه فيما يتصل بالمكتبات ، فبدأ الأغنياء يقيمون مكتبات عامة ، تضم كتباً فى المنطق والفلسفة والأدب واللغة والشريعة ، يتردد عليها أولئكم العاجزون عن شراء الكتب أو الذين لا يتيسر لهم الحصول عليها .

وأول مكتبة عامة أقيمت فى الإسلام كانت بالقرب من بيت الحكمة فى بغداد ، ثم أخذت تعبريات المدن فى الإمبراطورية تحذو حذوها ، فلم تلبث مدينة الموصل أن أنشأت مكتبتها العامة قريباً من عام ٩٥٠ م ، حيث يستطيع الطلاب أن يستعيروا مابها من مؤلفات ، كتباً كاملة أو فى شكل ملازم .

وأنشأ الخليفة **العزيز بن المعز لدين الله الفاطمى** ، المتوفى ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م ، مكتبة عامة ألحقها بقصره ، وتضم من الكتب ١,٦٠٠,٠٠٠ مجلد ، ورواية **أبى شامة** فى كتابه « الروضتين » ترتفع بالعدد إلى مليونين ، وكانت

تحتوى على مصنفات فى الفقه واللغة والحديث والتفسير والفلك والكيمياء ، عدا المصاحف . وكان بعض الكتب مكتوباً بخط ابن مقلة ، وعلى بن هلال المعروف بابن البواب ، وغيرهما من مشاهير الخطاطين . وعندما جاء ذكر كتاب العين للخليل بن أحمد أمام الخليفة العزيز أمر أمين المكتبة أن يجيء بما فى المكتبة من نسخه ، فجاء منه بنيّف وثلاثين نسخة ، منها واحدة بخط الخليل بن أحمد نفسه . وحمل إليه ورّاق نسخة من تاريخ الطبرى فاشتراها بمائة دينار ، رغم أن المكتبة كانت تضم منه مايربو على عشرين نسخة ، منها واحدة بخط المؤلف نفسه[1] . وفيها مايزيد على مائة من كتاب « الجمهرة » لابن دريد . وكان الخليفة إذا زار المكتبة ترجّل إجلالا للعلم .

ولم يكن الغرب الإسلامى أقلّ عناية بالكتب ، فأنشأ عبد الرحمن الداخل مكتبة فى قرطبة ، أخذت تزداد وتتسع فى عهد خلفائه من بعده ، وبلغت شهرة عالمية فى عهد عبد الرحمن الناصر ، فلما أراد الإمبراطور البيزنطى أن يهادى خليفة قرطبة بشىء يدخل البهجة على نفسه ، أهدى إليه كتاباً جديدا هو Dioscorides وكان مكتوبا فى اللغة اليونانية ، فطلب إليه الناصر أن يوافيه بمن يقوم بترجمته إلى العربية ، فأرسلت إليه القسطنطينية الراهب نيكولاس Nicolas . فلما توفى الناصر ، ثم الأمير محمد من بعده ، ضم الحكم مكتبتيهما إلى مكتبته فصارت أكبر مكتبة فى الأندلس ، وبلغ عدد مجلداتها فى خبر لا يرقى إليه الشك : ٤٠٠,٠٠٠ مجلد ، وكُتبت فهارسها فى ٤٤ كرّاسة ، فى كل واحدة ٥٠ ورقة ، منها عشرون مخصصة للدواوين الشعرية فحسب ، وكان الحكم ، وهو من الخلفاء العلماء القارئين ، يستخدم شخصيا الكثير من هذه الكتب ، وكثيرا مايدوّن ملاحظاته وتعليقاته على هوامش المخطوطات ، فأصبحت ذات أهمية عظيمة فى نظر العلماء المتأخرين .

وإلى جانب المكتبات العامة كانت هناك المكتبات الخاصة تسهم فى نشر الثقافة ، وتعميق المعرفة . وأقدم مكتبة خاصة نعرفها كانت عند خالد بن يزيد

---

(١) تقول إحدى الروايات : إن عدد نسخ كتاب الطبرى فى مكتبة العزيز بلغ ١,٢٢٠ نسخة ، والمبالغه فى الرقم واضحة ، والأقرب أنه سهو من النساخ .

ابن معاوية بن أبي سفيان المتوفى سنة ٨٥ هـ ، حكيم آل مروان وعالم قريش . وأقام على بن يحيى المنجم ، حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى خزانة كتب عظيمة فى ضيعته ، وسماها « خزانة الحكمة » ، وكان يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ويتعلمون منها ، « والكتب مبذولة لهم ، والصيانة مشتملة عليهم » والنفقة فى ذلك من مال صاحبها . وعندما صودرت أموال حبشى ابن معز الدولة لأنه أراد عصيان أخيه أمير بغداد ، عام ٣٥٧ هـ = ٩٦٧ م ، كان من جملة ماأخذ منه خمسة عشر ألف مجلد ، سوى الأجزاء وماليس بمجلد . وعندما استدعى السلطانُ نوحُ بن منصور السامانى الصاحب بن عباد (ت ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م) ليوليه الوزارة ، اعتذر بأنه لا يستطيع حمل أمواله ، وأن عنده من كتب العلم خاصة مايحمل على أربعمائة جمل أو أكثر . وكان فهرس كتبه يقع فى عشرة مجلدات ، « وهى أكثر من كل مافى مكتبات أوربا العامة والخاصة مجتمعة فى العصر الوسيط »[1] . وترك الواقدى المؤرخ ، صاحب كتاب « المغازى » ، عند وفاته ٦٠٠ صندوق من كتبه ، يحتاج الواحد منها لحمله إلى عشرة أشخاص .

وأسس أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى ، الفقيه الشافعى المتوفى عام ٣٢٣ هـ = ٩٣٥ م ، داراً للعلم فى بلده ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم ، لايمنع من دخولها أى طالب علم ، وإذا جاء غريب يطلب الأدب وكان معسراً أعطاه وَرَقاً ووَرِقا ، وكان يجلس فيها إلى الطلاب يملى عليهم من شعره ، وشعر غيره ، أو يقص عليهم حكايات مستطرفة ، أو طرفاً من الفقه ومايتعلق به ، وأنشأ القاضى ابن حبان ، المتوفى ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م داراً للعلم ، وخزانة كتب ، ومساكن للطلاب الغرباء فى مدينة نيسابور ، وأجرى عليهم الارزاق ، وكانت لوائح المكتبة تمنع إعارة الكتب خارجها . واتخذ الشريف الرضى ، المتوفى عام ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م نقيب العلويين والشاعر المشهور داراً سمّاها « دار العلم » ، فتحها للطلاب ، وعيّن لهم فيها جميع ما يحتاجون إليه .

وأشهر مكتبة خاصة كان يملكها فرد فى قرطبة كانت مكتبة القاضى أبو المطرف

---

(١) لكيلا ينزعج السادة المتاوربون ، فإن التعبير ليس لى ، وإنما هو للمستشرق الفرنسى جاك رسلير ، فى كتابه « الحضارة العربية » ص ٩٢ ، وقد أشرنا إلى الكتاب من قبل ، هامش ص ٥٧ .

ابن فطيس (ت ٤٠٢ هـ = ١٠١١ م) ، وقد أنشأ لها مبنى خاصا ، صنع بفن يتيح رؤية الكتب مستريحة فى أماكنها ، عبر أبهاء أنيقة ، وعلى الجدران ، ورؤية السقف والسجاد والشلت ، وكلها خضراء اللون ، وكان اللون المحبب إلى نبلاء قرطبة ، وجمع فيها من الكتب فى مختلف أنواع العلوم والفنون مالم يجمعه أحد من أهل عصره فى وطنه ، وكان يعمل فيها باستمرار ستة من الورّاقين يسخون له دائماً مايريد ، ولكى يجيدوا عملهم ، وحتى لا يتسرعوا فيه ، كانو يقبضون رواتبهم مشاهرة على امتداد العام كله ، وكان يشرف عليها ويديرها ويعدّ فهارسها ، وينسخ الكتب النادرة ذات الأهمية الخاصة ، أبو عبد الله بن معالى الحضرمى ، وفى نفس الوقت كان يعمل إماماً لمسجد الأسرة . وعندما يعرف أبو المطرف أن أحداً حصل على كتاب جديد لا يهدأ له بال حتى يشتريه ، يدفع فيه الثمن أضعافاً مضاعفة ، فإذا لم يستطع الحصول عليه وسّط من يعينه على ذلك ، فإذا فشل فى محاولته طلب أن يُهدى إليه ، أو يسمح له بنسخه . وكان لا يعير كتاباً من أصوله البتة ، وإذا ألحف عليه أحد فى السؤال أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ثم دفعه إلى المستعير . وعندما قررت أسرته فيها بعد بيع كتبه ، استمر البيع فى مسجده عاما كاملاً وكانت حصيلة مابيع منها أربعين ألف دينار .

وعرفت الأندلس نوعاً آخر من هواة الكتب ، أولئكم الذين يطلبونها وجاهة ، ويضعونها فى منازلهم تزيُّنا ، روى المقرى فى « نفح الطيب » على لسان أندلسى : « أقمت بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة ، أترقب فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء ، وهو بخط فصيح وتجليد مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد فى ثمنه فيرجع إلى المنادى بالزيادة على ، إلى أن بلغ فوق حدّه ، فقلت له : ياهذا أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلّغه إلى مالا يساوى ، قال : فأرانى شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه وقلت له : أعزّ الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه . قال ، فقال لى : لست بفقيه ، ولا أدرى مافيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها ، لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط ، جيد التجليد ، استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير » .

وكانت هناك قواعد لإعارة الكتب يلتزمها الطلّاب ، أوردها ابن جماعة فى كتابه « تذكرة السامع » ، وعنه ننقل نصها : « ينبغى لطالب العلم أن يعتنى بتحصيل الكتب المحتاج إليها فى العلوم النافعة ماأمكنه ، شراء أو إجارة أو عارية ، لأنها آلة التحصيل . ولا يجعل تحصيلها وجمعها وكثرتها حظه من العلم ، ونصيبه من الفهم . وإن أمكنه تحصيلها شراء فلا يشتغل بنسخها ، لأن الاشتغال بالدرس أهم من النسخ ، ولا يرضى بالاستعارة مع إمكان تحصيله ملكاً أو إجارة .

وإذا استعار كتاباً فلا يبطئ به من غير حاجة وأن يتسكر للمستعير ذلك ويجزيه خيراً ، وإذا طلبه المالك فيحرم عليه حبسه ويصير غاصباً له ، وقد جاء فى ذمّ الإبطاء رد الكتب المستعارة عن السلف أشياء كثيرة نظماً ونثراً .

ولا يجوز أن يصلح كتاب غيره ، دون إذن صاحبه ، إلا فى القرآن ، فإن كان مغلوطاً أو ملحوناً وجب إصلاحه . فإن لم يكن خطه مناسباً أمر من يكتب ذلك بخط حسن . ولا يعلق عليه : ولا يكتب شيئاً فى بياض فواتحه أو خواتمه ، إلّا إذا رضى صاحبه ، ولا يعيره غيره ، ولا يودعه لغير ضرورة ، ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه ، فإن كان الكتاب وقفاً على من ينتفع به غير معين فلا بأس بالنسخ منه مع الاحتياط . وإذا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً ، بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسى الكتب المعروف ، كيلا يسرع تقطيع حبله . ولا يطوى حاشية الورقة وزاويتها كما يفعل كثير من الجهلة ، ولا يعلّم بعود أو شىء جاف ، بل بورقة أو نحوها . وإذا استعار كتاباً فينبغى أن يتفقده عند إرادة أخذه من ورقة محتاج إليها ونحوها . وإذا اشترى كتاباً نظر أوّله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه واعتبر صحته » .

سيكون مرهقاً أن نتتبع تاريخ المكتبات الخاصة ، وحسبنا القول إنها كانت إحدى ملامح المجتمع البارزة ، وعندما يبلغ الناس هذا القدر من الثقافة ، ويصبح اقتناء الكتب عندهم أمراً ضروريا ، تفرضه طبيعة الحياة والتقدم ، فى مجتمع طافح بكبار الأغنياء وأصحاب الثروات الضخمة ، يبدأ التفنّن فى الكتابة وزخرفة الكتب وتجميلها . وكان المانوية أول من عُنى بزخرفة الكتب بالذهب والفضة ، ثم تبعهم أصحاب الحلاج ، الذى قتل عام ٣٠٩ هـ = ٩٢١ م ، فكانت كتبهم تخط على

ورق صينى ، وبعضها يكتب بماء الذهب ، ويبطن بالديباج والحرير ، ويحدّ بالأدم الجيد . وفى القرن الخامس الهجرى أهدِىَ للوزير نظام الملك مصحف بخطّ أحد الكتاب المجوّدين ، وقد خطّ كاتبه اختلاف القراء بين سطوره بالمداد الأحمر ، وتفسير غريبه بالأخضر ، وإعرابه بالأزرق ، وكتب بالذهب علامات عى الآيات التى تصلح للاقتباس فى العهود والمكاتبات ، وآيات الوعد والوعيد ، ومديكتب فى التعازى والتهانى .

وقد أورد المستشرق السويسرى آدم متز Adam Mez فى كتابه عصر لنهضة فى الإسلام Die Renaissance des Islams[1] بعض ما كان فى خزائن كتب فى الغرب ، فى تلك الفترة ، على سبيل المقارنة فقال : « كان فى مكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستانز فى القرن التاسع الميلادى ثلاث مئة وستة وخمسون كتاباً ، وفى مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢ م مايزيد على المائة بقليل ، وفى خزانة كتب الكاتدرائية فى مدينة بامبرج سنة ١١٣٠ م ستة وتسعون كتاباً فقط » .

أدت هواية الكتب إلى قيام عدد من الصناعات والحرف المتعلقة بها ، من النساخ والخطاطين والمجلدين والمزخرفين . وكان هؤلاء النساخون يتفـتون علماً ومقاماً ، وبينهم من بلغ رتبة الوزارة كابن مقلة ، وكان أبو على القالى ، العالم اللغوى الذائع الصيت ، ينسخ الكتب النادرة والهامة فى مكتبة الحكم ، ويراجع نسخ بقية الخطاطين ، وكان بينهم عدد من الخطّاطات حفظ لنا التاريخ منهن اسمى : لبنى وفاطمة .

وكان ارتفاع أثمان التجليد يجعل عشاق الكتب ، والقائمين على لمكتبات ، يجمعون عدداً من الكتب فى مجلّد واحد ، وأحياناً عدداً من أجزاء لكتب مختلفة ، أو فصْلات من هذه الكتب ، ومن هنا فإن فهارس المخطوطات غير انستأنية التى تصدرها المكتبات الكبرى على امتداد العالم المعاصر ، تعريفاً بالمخطوطات العربية ، لا تصورّ الواقع تصويرًا دقيقاً ، فقد يكتفى فى التعريف بذكر عنوان الكتاب الأول أو بالعناوين البارزة خلال المجلد ، وغالباً ماتغفل عن الأجزاء

---

(١) قام بترجمة هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ونشره بعنوان : « الحضارةالإسلامية فى القرن الرابع لهجرى » وظهرت الطبعه الأولى منه فى جزأين عام ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠ م ، وأعيد طبعه بعد ذلك مرات .

الصغيرة الحجم ، أو المهملة العنوان .

وظهرت حوانيت الكتب لتلعب دوراً تجاريا هاما ، وتؤدى رسالة تربوية لا تقل أهمية ، ويذكر اليعقوبى المؤرخ أن بغداد على أيامه ، عام ٨٩١ م ، كان فيها ما يزيد على مائة حانوت لبيع الكتب ، مجتمعة فى شارع واحد ، وكان الكثير من هذه الحوانيت ، كنظائرها فى القاهرة فى الثلاثينات من هذا القرن ، أماكن منخفضة متصلة بالمساجد ، وكان بعضها من الكبر بحيث يصبح المكان المفضّل للعلماء وهواة الكتب . وكان باعة الكتب أنفسهم من الخطاطين والناسخين والمشتغلين بالأدب غالباً . ولم تكن حوانيتهم مخازن للكتب أو النسخ فحسب ، وإنما مراكز للمناقشات الأدبية والعلمية أيضاً ، وكانوا يحتلون فى المجتمع مكاناً بارزاً ، وياقوت بن عبد الله الحموى (١١٧٩ - ١٢٢٩ م) ، صاحب كتابى « معجم لبلدان » و « معجم الأدباء » ، بدأ حياته الأولى ينسخ الكتب ويبيع المخطوطات . وكان ابن النديم المتوفى عام ٩٩٥ م ، أميناً لإحدى المكتبات ، أو بائع كتب ، ومن ألقابه « الورّاق » ، ونحن ندين له بكتابه العظيم « الفهرست » ، ويذكر لنا فيه أن عراقيا من هواة الكتب كانت تضم خزائنه مجموعة قيّمة من المخطوطات ، من بينها ماهو مكتوب على الرق ، والبردى المصرى ، والورق الصينى ، واللفائف الجلدية ، وكل مخطوط منها يحمل اسم ناسخه ، وقد أجاز صحتها خمسة أو ستة أجيال من العلماء .

وكان يحيى بن محمد الأرزنى عالما فى العربية ، نحوياً مليح الخط ، سريع الكتابة ، يخرج فى وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد ، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب « الفصيح » لثعلب ، ويبيعه بنصف دينار ، ويشترى نبيذاً ولحماً وفاكهة ، ولا يبيت حتى ينفق مامعه منه .

ولم تكن الطبقة الدنيا محرومة من الكتب والثقافة إذ كان أبناؤها ، والبنات بصفة خاصة ، يعملون فى نسخ المخطوطات مقابل رواتب عالية . وكان العالم إذا لم يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب ، فكان أبو العباس الأصم ، المتوفى عام ٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م ، من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم ، إذا ذهب إلى المسجد لإلقاء درسه امتلأت عليه الطريق بالناس ، فيقومون له ، ويحملونه إلى المسجد على عواتقهم ، ولم يكن يأخذ على تدريسه أجراً ، وإنما كان يعيش من نسخ

الكتب . وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا . فكان ابن المطران المتوفى عام ١١٩١ م ، محبا للقراءة ، وناسخا ممتازاً ، يكره شراء الكتب ، ويؤثر نسخها بنفسه .

ولم يكن أى ناسخ ينسخ أىَّ كتاب ، لأن الناسخ لابد أن يكون ملما بالموضوع الذى ينسخه ، وكان النسّاخ بحكم التجربة يعرفون أن هناك مخطوطات أقرب إلى النص الأصيل من غيرها .

وكان المؤلف يعهد بالكتاب إلى أحد أصدقائه أو تلاميذه ، أو نسّاخين محترفين أو ورّاقين لينسخوا له نسخة خاصة ، أو عدداً من النسخ للبيع ، وفى أحيين قليلة وخاصة ، كان يعهد به إلى أكثر من واحد ، كما حدث عند نسخ تاريخ دمشق لابن عساكر ، وكان فى ثمانين مجلداً . فقد اختير لهذا العمل عشرة من النساخين انتهى كل منهم من نسخ ما سلم إليه فى سنتين ، وهى مدة غير طويلة .

وبعض الوراقين كان يؤجّر الكتب لمن يرغبون فى قراءتها أو استنساخها مقابل دفع شىء من المال . وقد أورد لنا ابن الداية ، أبو جعفر أحمد بن يوسف المتوفى ٢٩٢ هـ = ٩٠٥ م فى كتابه « المكافأة » قصة إسحاق بن نُصَير العبادى ، وكان من كتاب الخراج فى مصر ، وأمضى طفولته فى بغداد فقيراً معدماً نهماً إلى العلم ، يذهب كل عشية راجلاً إلى دكان وراق ، فيستعير منه الكتاب بعد الكتب ، فإذا اقتضاه كراء ما نسخ منه ، ألحّ عليه أن يمهله إلى أن يجد عملاً يدر عليه بعض المال .

ولم تكن للتأليف حقوق مقرّرة ، والعلم خالص للمجتمع ، ويمكن لأى إنسان أن ينسخ أىّ كتاب لنفسه ، أو ليبيعه لغيره ، وفى مقابل ذلك كانت الدولة تبسط حمايتها على المفكرين ، فتجرى عليهم أرزاقها ، ومن العلماء من كان يرفض الراتب المقرّر له ، اعتزازاً منهم باستقلالهم ، ويستعيضون عنها بالعمل الذى يدرّ عليهم رزقاً يقوم بحياتهم . والكثيرون من الأغنياء ، وأعطينا لهم بعض المثل من قبل ، كانوا يمضون حياتهم وينفقون أموالهم فى اقتناء المخطوطات وتوسيع مكتباتهم ، وكانت المؤلفات تنتشر على نحو أوسع مما هى عليه فى عالمنا الحديث ، رغم المطابع ، ويسر الورق ، وسهولة المواصلات .

وعرف المسلمون نوعاً من الطباعة لم تصلنا تفصيلات وافية عنه ، وتحتفظ

مكتبة باريس الوطنية بنص طبعة المانوية فى تركستان قبل اختراع جوتنبرج Gutenberg للمطبعة بستمائة عام[١] ، وأنتج المنغوليون فى إيران ، فى القرن الثالث عشر الميلادى ، نوعاً من الورق صالحاً للطباعة بواسطة بعض الشخوص المتحركة من البرنز[٢] .

وكانت الدولة تضع فى المقام الأول من عنايتها نشر الآداب والعلوم والفنون ورعاية الكتاب والأدباء والمفكرين ، وكان هؤلاء يتمتعون ، بصفة عامة ، بحرية فكر غير محدودة ، ولقد درس **الشهرستانى** فى كتابه « الملل والنحل » العقائد التى كانت سائدة فى عصره فى حياد دقيق ، لا يمكن أن تجد له مثيلاً عند عالم مسيحى من علماء عصره .

ويقص **ياقوت** ، أن شيخه **مبارك بن المبارك** ، أستاذ النحو فى مدرسة النظامية ، لام أمين إحدى خزائن الكتب ، لأنه أتلف نسخة من كتاب **المعرى** فى نقد القرآن .

لكن حظ الثقافة الإسلامية كان تعسا ، فضاع الجانب الأكبر من هذه المخطوطات أثناء الاضطرابات السياسية ، وخلال عصر الاحتضار . ضاعت مكتبة العزيز المصرية خلال الفتنة التى حدثت عام ١٠٦٨ م ، حين عم القحط وانتشر الوباء ، وحصد الطاعون الناس حصداً ، ووقع الخلاف بين الجنود السودانيين والأتراك ، وعندما تأخرت رواتب الأتراك ، وكانوا القادة ، أغاروا على المكتبة ، ويقول **المقريزى** : « إن الكتب الجليلة المقدار ، المعدومة النظير فى سائر الإمصار ، صحة وحسن خط وتجليداً وغرابة ، قد اتخذ عبيدهم وإماؤهم من جلودها نعالاً وأحذية . ثم أحرقوا أوراقها زعما منهم أنها تحوى كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم » وعندما دخل **صلاح الدين** القاهرة منتصراً ، بعد هذه المأساة بقرن من الزمان ، وجد بقايا المكتبة فى القصر الملكى تضم مائة ألف مجلد أو يزيد ، فوزع

---

(١) جوتنبرج ألمانى الأصل والنسأة ، ولد بين عامى ١٣٩٤ و ١٣٩٧ م وتوفى ١٤٦٨ . ومن الأخطاء نسبته القول بأنه اخترع الطباعة . فالحق أنها كانت قبله ، ولكنه أدخل عليها بمعاونة شخصين آخرين هما فوست Fust وسوفير Schoefer الكثير من التحسينات ، فدفع بها إلى الأمام خطوات سهلت مهمة الذين طوروها فيما بعد ، لتصبح على ما هى عليه الآن ، دقة وإنجازًا وسرعة وفنا .

(٢) Risler . La Civiliztion Arabe. p. 105.

بعضها على رجاله ، وبيع البعض الآخر على يد خبير بالكتب يُدْعى ابن صورة ، واستغرقت عملية البيع بضع سنين ، ومابقى منها إلى عهد المماليك باعه الطلبة أثناء المجاعة التى اجتاحت الديار المصرية ، نتيجة القحط والأوبئة بين عامى ١٣٤٨ م و ١٣٤٩ م ، كل مجلد برغيف .

وعندما اقتحم هولاكو مدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م ، أباح عاصمة بنى العباس أربعين يوماً ، وكان الدمار الذى أصاب الثقافة العربية والإسلامية مريعاً ، فألقيت مئات الألوف من المخطوطات فى نهر دجلة . ولم يكن نصيب الكتب العربية من الدمار خلال زحف تيمورلنك بأقل منه على يد هولاكو .

وفى الغرب الإسلامى تعرض التراث الإسلامى لنفس المحنة ، أو أشد قسوة ، فحين سقطت غرناطة عام ١٤٩٢ وانتهت دولة المسلمين فى الأندلس ، أمر الكاردينال فرانسيسكو خمينيث دى ثيسنيروس Francisco Jimenez de Cisneros (ت ١٥١٧ م) ، عراف الملكة إيزابيل فاتحة غرناطة ، وصاحب النفوذ السياسى الهائل يستمده من الدين ، بإحراق الكتب العربية فى ساحة باب الرملة فى غرناطة ، ولاسيما ما كان متصلاً بالأدب أو الفكر أو الدين وبخاصة المصاحف المخطوطة ، وبأن تباد كل الكتب العربية نهائيا من كل إسبانيا ، ويفوق عدد المخطوطات التى أحرقت فى غرناطة وحدها كل تصور . وأكثر الباحثين حذراً ، وعطفاً على الكاردينال ، يقدّرونها بثمانين ألفاً[١] .

وكان آخر هذه الكوارث المأساة المريعة التى تعرضت لها مكتبة جامعة الجزائر ، حين أضرم المتعصبون الفرنسيون النار فيها عام ١٩٦٢ ، خلال حرب الاستقلال البطولية التى خاضها شعب الجزائر ، فأتت على جل مافيها .

وضاعت أعداد هائلة من المخطوطات خلال الثورات الداخلية ، والاضطرابات والفتن ، وكانت طابع أواخر العصور الوسطى ، وكنتيجة حتمية للاحتضار الثقافى فترت عناية الناس بالمخطوطات والكتب ، ومع المدّ الاستعمارى الأوربى تعرّض مابقى منها لنهب المستعمرين ، عن طريق السرقة أو الغش أو الخداع والحيلة ،

---

(١) انظر : الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ، للمستشرق الألمانى فون شاك ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، ص. الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .

ونقلت آلاف المخطوطات إلى دور الكتب الأوربية ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وجامعاتها ، وأصبح اقتناء المخطوطات العربية عملاً مرغوباً ، وميزة تحرص عليها هذه الجامعات ، ومجالاً للتسابق تتنافس فيه .

ثم اخْتُرِعَتْ الطباعة ، فيسّرت القراءة ، وأرخصت الكتاب ، وقلّلت الأخطاء ، ومن أسف جاء اختراعها وسلطان الإسلام ينحسر عن الأندلس ، وسُحُب الجهل تطبق على الأمة الإسلامية ، فلم يدرك العالم العربى أهميتها ، وقعد عن الإفادة منها ، فتأخّر إنشاؤها قرابة قرن ونصف قرن من الزمان ، واحتاج إدخالها فى تركيا ، وكانت مركز الخلافة الاسلامية ، إلى فتوى شرعية ، فسمح بها العلماء بعد جهد كبير ، على أن تقتصر على طبع الكتب غير الدينية ثم سمحوا بطبع هذه عندما تبيّن لهم فائدتها .

ظهرت أول مطبعة عربية فى مدينة « فاتو » بإيطاليا ، أمر بإنشائها البابا يوليوس الثانى وبدأت العمل عام ١٥١٤ فى عهد الباب ليون العاشر وأول كتاب عربى طبع عليها فى تلك السنة كتاب « الأورلوجيون » المعروف بكتاب السواعية ، وهو كتاب دينى يحتوى على صلاة الساعات الليلية والنهارية فى الكنائس المسيحية البيزنطية ، ويقع فى ١٨٨ صفحة[١] ، ثم سفر الزبور فى عام ١٥١٦ م . وقام رجل يدعى بجانينو دى بريشيا Baganino de Brescia بطبع القرآن للمرة الأولى فى مدينة البندقية عام ١٥٣٠ م ، ولكن الباب أصدر أمره بإحراق جميع النسخ خشية تأثيرها فى عقائد رعاياه من المسيحيين[٢] .

وقد نشأ عن فشل الحروب الصليبية فى تحطيم الدولة الإسلامية قيام فلسفة جديدة تدعو إلى غزو العالم الإسلامى عن طريق الفكر ، بدراسة لغة المسلمين وعقائدهم ، وتعليم المبشرين اللغة العربية ، وكان على رأس الدعاة إلى هذه الفكرة الفيلسوف الإسبانى الراهب رايموندو لل Raymundo LuII (أو لوليو LuIio)[٣] ، فأدى ذلك إلى العناية بتدريس اللغة العربية فى الجامعات الأوربية ،

---

(١) تملك دار الكتب المصرية نسخة من هذا الكتاب الفريد .

(٢) Montero Vills, Jose de: Mahoma, Su vida, el Coran, tom II, p. 345, Madrid 1926.

(٣) انظر ، كتاب دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، للدكتور الطاهر أحمد مكى ، فهناك دراسة وافية عن رايموندوزلل ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

فى باريس ووارسو وفيينا وأكسفورد . وإنشاء المطابع العربية ، فأنشئت فى روما ، مقر الفاتيكان ، مطبعة عربية كان من بين مطبوعاتها كتاب القانون لابن سينا ، وحذت بقية عواصم أوربا الكبرى حذو روما .

وأقدم مطبعة عربية أنشئت فى دير قزحيا بلبنان عام ١٠١٩ هـ = ١٦١ م ، وكانت سريانية عربية ، وأنشأ البطريرك أثناسيوس الرابع مطبعة فى حلب عام ١١١٠ هـ = ١٦٩٨ م . والروم الملكانيون مطبعة ماريو حنا الصايغ فى الشوير عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ م . والروم الأرثوذكس مطبعة القديس جاورجيوس فى بيروت عام ١١٦٧ هـ = ١٧٥٣ م . وهذه المطابع كانت مطبوعاتها قليلة ، وأكثرها دينية ، ولم يكن لها أثر يذكر فى نشر الثقافة العربية . وأول نهضة جدية للطباعة بدأت بإنشاء المطبعة الأمريكية فى بيروت عام ١٢٥٠ هـ = ١٨٣٤ م ، ثم المطبعة الكاثوليكية من بعد فى عام ١٢٦٥ هـ = ١٨٤٨ م ، وتعد هذه الأخيرة أكبر المطابع فى سوريا وأتقنها ، فهى مزودة بأحدث آلات الطباعة ، وتتميز كتبها بالإخراج الدقيق ، والطباعة المتقنة ، ويقوم على تحقيقها عادة كبار الأدباء وعدد من المستشرقين .

أما مطبعة الآستانة فأقدم كتاب نشر فيها يرجع تاريخه إلى عام ١١٤٤ هـ = ١٧٢٨ م ، وتلتها مطابع أخرى ، وكانت المطابع التركية أسبق إلى نشر الكتب الأدبية والعلمية من سواها ، فطُبع هناك القاموس المحيط فى سنة ١٨١٤ م ، وطبعت كافية ابن الحاجب سنة ١٨١٩ م ، وبلغ ماطبع فيها من الكتب الأدبية واللغوية حتى ١٨٣٠ م أربعين كتاباً . واشتهرت مطبعة الجوائب بالعناية بنشر عدد من أمهات الكتب والمراجع .

لكن مطبعة بولاق التى أنشأها محمد على فى مصر عام ١٢٣٧ هـ = ١٨٢١ م ، كانت أهم هذه المطابع جميعاً ، وأبعدها أثراً فى بعث الثقافة العربية ، وماتزال تحتفظ لنفسها بهذه المكانة حتى اليوم ، فهى أكبر مطبعة عربية فى العالم العربى دون استثناء ، ولو أنها فى ربع القرن الأخير تراجعت عن رسالتها الأدبية ، وأخذت تُعنى بالكتب المدرسية ، وحاجات الدولة من اللوائح والمطبوعات والقوانين . وقامت إلى جوارها عشرات المطابع الحديثة والمتخصصة لنشر التراث العربى والإسلامى ونتاج العلماء والأدباء المحدثين .